خلف علي الخلف

نص

نواح الغريب

حكاية لم ينقرها الطير

نواح الغريب

حكاية لم ينقرها الطير

نص

خلف علي الخلف

الناشر: LULU PRESS

STRANGE'S HOWLING

A TALE NEVE BEEN KNOCKED BY A BIRD

BY

KHALAF ALI AL KHALAF

Copyright ©

First Publishing in November 2008

لوحة الغلاف: للفنان أحمد برهو

تنفيذ الغلاف: سعد الياسري

الخطوط: المصمم الموريتاني محمد حسن

الطبعة الأولى: تشرين الثاني 2008

جميع الحقوق محفوظة

ISBN:

خلف علي الخلف

نواح الغريب

حكاية لم ينقرها الطير

نص

WWW.LULU.COM

إلى...

البيضاء مثل غيمة ..

سوزان

بمثابة مقدمة:

أعمى غرناطة

نترك الأسماء على الأبواب تـئن مـن وحـشة البـرد ووهـن أصـواتها، ونلتحف بيأس يتدفّأ بمفردات عارية.

ماذا يفعل الغريب، حينمـا تتناوبـه الأوطـان، وهـو بـلا وطـن، وحيـداً وعارياً يناشد الظلال، أن اتركي الغريب يتفيّأ قليلاً، ويناشد أمه التـي مثل غيم داكن!

ماذا يفعل غير أن يتكئ على امـرئ القـيس معزيـاً نفـسه بوجـع قالـه غيره «أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب».

وليست الغربة هنـا الاغتـراب الـذي يلتحـف بـه الكثيـرون، ولا الغربـة بمعناها المكاني، وليست غربة الروح كما المجاز الشعري.. إنها غربة الخلّان، أولئك الذين يبنون الذاكرة والمكـان ويـشجرونه ويـسورونه أيضاً.. غير أنهم يرمونه بأسى الحنين.

في الغربة يأكل الغريب من ذاكرته، ويشرب منها كذلك، فاقداً بهجة اللحظة.. لا بمعناها الخاطف، بل بمعناها المقيم.. تلك البهجة التـي لا يمكن لها أن تنمو في الغربة كنخلة صقر قريش.

و حينما الهواجس تنتاب الغريب، فإن ذلك قد يقوده إلى القسوة، وهو في حالة عدم إدراك حسي لما يسمى الحب! عندها لا تغدو عبارة درويش «أنا لا أحبك كم احبك» اشتغالاً على اللغة وتأويلاتها، بل إنها اشتقاق للمعنى من الحيرة، التي يقع فيها الغريب تجاه ما يعرف بالحب.

كما أن نداء بيرس«ألا لا يموتن أحد قبل أن يحب»يصبح سعياً يومياً لهذا الغريب.. غير أنه لا يجد سوى الأسى والوحدة على مفارق المقاهي المترملة من الخلّان.

وهنا قد يكون أحد الحلول اللاواعية هو تحول هذا الفيض نحو جهات أخرى، إذ عندما تفرغ المخيلة من صورة محسوسة لمحبوب حتى لو كان غائباً، فإن هذا السعي للحب قد يرتد إلى أحد شكلين: إما حب الذات وتجلياتها، والإلتصاق والتوحد بها، أو تحوله إلى قسوة غير مبررة في كثير من الأحيان.

وهكذا تمضي الأيام! صحيح أنه في بعـض الأحيـان يـساورُنا تـساؤل نيرودا «ترى أحزنَ الذي ينتظر دائمًا، أكبر من حـزن الـذي مـا انتظـر أحداً؟»

غير أن هذا التساؤل لا يأتي ليخفف الوحشة، بل ليزيدها ويحيلها إلى ما فوق اليومي الذي يعتصر الغريب..

والغريب في وحشته.. وتـشرده.. وتبعثـر أجزائـه، فـي غربـة لـم تعـد المـسافة تعنـي لهـا شـيئاً، لا يعـود معنيـاً بـشروطها: قـسرية.. أم طوعية. ولا في إحالاتها الموضوعية؛ فهو ينسج الأمكنة والحنين من سيرة الخلّـان. ولا يفكـر علـى طريقـة الـسياب «الـشمس أجمـل فـي بلادي من سواها» بل أنه يجرد الحنين من مفهـوم الـوطن ويحيلـه إلى الوجوه / الأمكنة...

وهكذا، نمضي هكذا، بدون همزة على مفردة كالروح، وبدون نقطة على أول البوح، وبدون يد تخفف عن الجسد أساه!..

وإذ اعتدنا حينما نكتب عن مفردات ذهنية مثل الغربة والأسى والوحشة أن نحيلها إلى الروح، و أرى أن الجسد هو أول من يتحسس الأسى، وأول من توهنه الوحشة، فتصبح استجابته للحياة أوهن، بانفعالاته وحركته وتعابيره..

هكذا إذن، إنها الحياة التي لا تنتظر أحداً.. وستستمر سواء شعر كائن غريب بتبدده، أو بيأسه، أم لم يشعر..!

أحس به أنسباؤه الغرباء في بلاد غريبة أخرى أم لم يحسوا..!

وإذ يقول النواب:

«ربِّ كيف يشتاق إلى خمر جناتك من لم يسكر». فإن هذا يمكن أن نحيله إلى مفهوم الحب والقسوة.. إذ من هو شريد وغريب ويائس، كيف لا تعرف القسوة طريقاً إليه!

ومن تطارده لعنة القبر، ويظل يسائل نفسه ترى بأي أرض أموت.. وكيف ستنتقل جثتي إلى ترابها؟..

ومن يفتتح صبحه بخبز اوكتافيو باث «أيها الموت يا خبز الجميع» ليس لنا أن نرتجي منه أن يوزع وردا على العابرين.. بل سينتظر ورودهم على قبره.!

فاغفروا للغريب

أمـا يكفـي هجـران الأمكنـة لـه وذبـول اسـمه فـي سـيرة الخلّـان إنه أعمى في غرناطة! ذلك الذي كتب عنه لوركا قائلاً لامرأة اصطدم بها أعمى في مدينة غرناطة:

«فلنغفر له يا سيدتي

فلنغفر له

...

أما يكفي أنه أعمى في غرناطة!»

أيكفي كل هذا، لتغفروا كل تلك القسوة بكل هذه العزلة والحب

أنا الذي أعمى... غير أني لست في غرناطة ؟!

2003-12-07

الرياض

الولوج لرواة الحكاية

الوجوه التي تسندنا

أحياناً تصبح الأرض التي نمشي عليها..

أحياناً تكون الجدار...

أحياناً تكون السماء..

...

ودائما يتركون غصة حينما يبعدون.. لا يتركون أثرا، وكل غياب لهم يحفر جرحه على حواف الجسد، لا يشفى ولا يندمل. وهكذا تمضي الأيام دونهم..

منهم من نخيطه من الوهم.. وكثيرون هم الذين حين نتحسس أجسادنا نلامسهم. ليسوا وهماً، حتى عندما تطويهم الجهات شمالاً أو جنوبًا.

إنهم جرح لا يأخذ دلالته من المجاز، بل يأخذ معناه من النزيف الذي نراه يسيل..

إنهم جروح لا تتقرح، ولا تتقيح، تظل تنز دماً صافياً كوجوههم.. قالت لي الغريبة في سيرة منفاها «لقد كبر أطفالنا ياغريب.. دون أن ندري» من يومها وأنا أرقب أطفالي من البعد وهم يكبرون.. وليس لي غير أن أراهم نجوماً في سماء أيامي تؤانس جثتي، وكلما قالوا لي جملة تدل على أنهم كبروا أتذكر ما قالته الغريبة، وأشهق بغربتي... ياالله كم قصيرة هي الأيام!

لماذا لا تكون الأيام دائرية؟

لكنني أمضي في مدى مفتوح على الغياب و..

أتمتم في العزلة:

لو أستطيع أن أنسج من صورهم سجادة أحملها معي.. حينها سأظل أصلي دون وقت محدد. مرات أقول ليتني أستطيع أن أنسج من ضحكاتهم حصيرة.. حين تتعب أقدامي الحصى يفصلونني عن ألم المسير..

- إلى أين تمضي بنا ياقطار المصائب؟

سأمضي ..

«وحيداً وحافلا بالسواد...»وأعزي نفسي أن أصدقائي وطني وأعزي نفسي«تدرون المحبة وطن» المحبة وطن دون جهات... هكذا لا نمضي به، ولا يمضي بنا، ولا نعرف تخومه، ولا يطالبنا بالمسير، وحين تكون المحبة وطن سنغلق سيرة المنفى هازجين:

هؤلاء هم أتحسسهم في عزلة تحنّي أكفها

عزلة تلبس ثوب عرسها

الأفراح تحفر القبور لتخرج الهلاهيل

والنسوة يقفن شمال البياض

عاريات إلا من الغيم

ويرفعن السماء كي تظل العابرين

رواق الحكاية

(1)

يأتون فرادى على غفلة من الزمن، كيف نبددهم هكذا، كيف نلامس وجوههم الغيم، ثم نصفعها؟

على غفلة من الحياة التي تبعثرنا يأتون، نتركهم يغادرون هكذا..، هكذا؛ ويسكنون دمعاً لن يجف.. ومثلهم لايكفيه الدمع.. ومثلهم لا يجف..

أيُّها السديم لا تكتمل؛ أحفادك نحن، نكتهل بين هزيمة وأخرى، ننقش الكلام على شغاف القلب كي لا يضيع...

وها أنا أضيّع وجهي في الأمكنة، لا المغفرة تطالني، ولا الذنوب. أمضي في نشيج غامضٍ يحتسي الأيام، لا ظل لي ولا شكل، أبدد صوتي بالريح، وجسدي بالسكاكين...

ليس فراقاً يفيضُ، وليس نبيذاً من الدمع تسكبه أشلائي، غير أني أبكي..

أسلب من البعد جوهر الضلالة، وأشهق، يااا طيوراً تنقر البياض: هذه جثتي اعتذاراً عن الصلاة

هذا بصري يقودني لألوّن مايتسع من الخرافة

هذا دمي، اسفحه في دروب لم أمشها

مـرت بـي الجهـات، و لمـا أزل واقفـاً أتأمـل بكـاء الخطـى. مـرت بـي السنون، وكنت أنظر ببلاهة الكاهن. مـرت بـي الرائحـة وكنـت أزيّـن المعنى، وأرتدي جرحي عباءة تسترني عن العري.

وكنت غريباً كطعم الدم

حالكاً كفجيعة تعلو

ليلاً لم يعرف المارة..

آه من يتوضّأ بوجهي، ويصلي في غربتي

من يفض بكارة الفجيعة؟

ها أنا أفتتح طقسي.. فـافتحوا جـسدي لتـروا آثـاركم، لتـروا كـم مـن الجروح تركتم، وأنتم تغادروني

لـستُ ضـليّلاً، ولا ملكـاً لأرض لـم يفتتحهـا البكـاء، غيـر أنـي همـت، سلكت مسالك لاتؤدي إلـى جهـة أو أحـد، وكـان زادي الغبـار، ومـائي سراب لا يضيء

أشطر النهارات كي أمضي.. بلا دليل

ها أنا أدون إسرائي في وضح الظهيرة، ولن يصدقني أحد.

(2)

تعالي ياهدى، كنت أحتاج أحداً يفصل دمعي عني لأكمل النواح وكنتِ أنتِ..

سأقص لكِ الحكاية، ألم تكملي حكايتك ذات يوم لأجلي..! سأروي لكِ إذن آخر الجروح التي فُتحت للنزيف، وكل خطوة جرح، وكل فراق دم.

كنت أبحث عن عشبتي

وفي الطريق كنتُ ألهو بالصلاةِ أحياناً، وكنت ألهو بأن أعيد خطاي، فأمشي فوق آثارها.. كان بصري هو خريطتي، وكان الظلام عورةً استرها بقلبٍ (عذراء)، وحين يدهمني الجوع، أستلف من ذاكرتي بعض أيامي وأطحنها دقيقاً، والدمع ماءٌ وفير. كنت أخبز دقيق أيامي على صاجٍ من الخيبة..

كانوا يمرون، ولا أحد يلتفت لأعزلٍ يؤانسه حلم حبٍ، لا يسهو، ولا ينام.. علّمتُ الدروب بنقاطٍ من دمي كي أعرف كيف أعود، وكنت -عندما طال الدرب- ألتهي باصطياد الغبار، أبلله بالخرافة كي يُؤكل..

طال الطريق ياهدى، وفقدت دهشة المسير، و... على عجلٍ من الخطى كنتُ أشرب ماءاً يختلط بالمراثي، وكلما ماتت خطاي أحفر لها قبوراً، وأترك من جسدي بعضه شاهدةً للقبر، وأمضي..

وهكذا لم يبق مني سوى شبح بروح نافرة تطل على الحضور، ولا يبصر أحد غيابها..!

في الطريق إلى عشبتي صادفت الكثير.. الكثير..

رأيت؛ في السماء التي كانت تطبق علي فجأة؛ نجوماً تمارس الجنس

رأيت غيماً يمر من فوقي حاملاً المسرات، ولا يلقي عليّ السلام

رأيت الصحراء تتحول لـ امرأةٍ فاتنة وتدعوني إلى وليمة جسدها

رأيت البياض يهطل من غيم غامض، وليس فيه مطر

رأيت حيوانات ملهوفة تركض وراء حفيف ظلي (أنا الشبح الذي لا يرى)

رأيت الأسئلة وهي تغدو أفاعي تأكلني في كل حين

رأيت فؤوساً لا تحملها أيادٍ تحفر قبور خطاي

رأيت كل هذا في الطريق، وكنت أراهن على نداء بعيد، حتى أني لثقتي راهنت بمفردةٍ هي: العمر

كنت أسمعه أحياناً بين حلمٍ وحلمٍ مثل ضوء خافت (كنت أسمع الضوء صدقيني).. كنت أحنّي المسافة بأثرٍ تركته الجنيات على طريقي، وهي تمر مسرعة إلى أين؛

كنت أتحسس كل صوت ألامسه كي أعرف إن كان هو ندائي الذي يمتصني..

وهكذا نسيت العشبة، ولا أدري كيف صارت نداءً.. هكذا أصبح حالي.. لـم آبـه للأمـر - أن أصـبحت العـشبة نـداءً - وبقيـتْ تقـودني رائحـة النداء، لم يكن له رائحة دائماً وإلا كنت وجدته. أيضا تمرني الرائحـة كلما غفوتُ وظننتُ أني أصبحتُ سماءً، وهذا الحلم قليل التكرار لكنه يتكرر! إذ لا أحد يريد أن أفقد شهوتي للمسير.

لاتشاكسيني وتقولي من هذا الــ أحد؟ لاأدري.

هكذا كنت، حين مرت في لحظة صحوٍ جنازة.. تأملت خطاياها، تأملت المشيعين، تأملت ذنوبها، تأملت نحيبها المهدور، تقصيت سلالتها، تقصيت سلالة المـاء الـذي غُـسلت بـه.. تـصوري كـان كفنهـا مطـراً أبيضَ

صرخت: ياندائي

هل أكمل لكِ كيف اجتمع الريح والغيم والملائكة والـ اللّه...

(3)

سأكمل ياهدى فها مسعد يقول: أكمل.

وأنا بحاجة لأن أرى دمي وأؤانسهُ بالهذيان وأنت نائمة في هذا الوقت، ولا يجرؤ الهذيان أن يقول لك استيقظي أريد أن أكمل الحكاية لكِ.

إذن ليست الغربة يامسعد، ولم يعد يشكل المكان اغتراباً لشبحٍ ليس منه سوى روح نافرة.. ليست الغربة مكانًا، والروح لا مستقر لها، ودعني أذرف الحكاية.

حين صرختُ ياندائي بُهتَ المشيعون، وألقوا بالجنازة على الأرض وفرّوا.. لم يتتبعهم بصري، ركضتُ إلى جنازتي.. لم أكن بحاجة لأصابعي كي أفك الكفن، كان يخنقني ارتجافي، وأنا أرى النداء (هكذا تيقنت بدايةً) مكفنا بمطر أبيض قلت أغني له، أهدهده، أحتضنه بكفنه..

هكذا ساورتني ظنوني، وارتجافي..

قلتُ: هذا ندائي (لم أكن جازماً حينها)، لأسُدَ المسالك كي لاتفاجئني الجهات

قلتُ: أرى خلف هذا الكفن بهاءً ينام.. ليس ميتاً

قلتُ: لأقرع له أجراس الحنين ليصحو

قلتُ: أصابعي تداهمها شهوة البياض

قلتُ: هذا مطر يشفُّ عن نداءٍ أراه كزغاريد الأعراس

قلتُ: لتغر نداءَك المكتوم بالاختلاج

وقلتُ: يا عرائس الصمت تقدمي كي ترقبي الآمال

وقلتُ: يا جنون الضوء بالمباغتة

وقلتُ...

الحكاية كانت تتسع ياهدى، لم أعد أعرف أيّنا كان يبحث عن الآخر، ولم أعد متيقناً إن كنتُ أنا من كان مكفناً بالمطر الأبيض أم هو!!.. حينها آمنت أن للحكمة آلهة، وحينها كنتُ أجزُّ شبق الحلم من شعره، وأرامل- لاأراهن- كن يصرخن:

تعال نرضعك النسيان واترك شعره

تعال إلى نشيدٍ يرتل سيرتك المطفأة

تعــال..

المتاهة شاهقة، ونحن مفتونات بالصراخ

كان ندائي (كنت مرتاباً للآن) أمامي وحيداً، وأنا صرت غيبوبة تجري، وكنت ابرأ شيئاً فشيئاً من ألم المسير..

فارقتُ الزمن - أو هو الذي فارقني – بدأت أستعيد بعض شواهد القبور، وبدأت روحي (خمنتُ) تشعُّ. أبصرتها، لامستها، تحسستُ وشماً قديماً تركته الفتنة عليها حين عبرت بيتنا ذات يوم، هتفتُ حين عرفتني:

هاهي الروح عادت من سفرٍ بعيد.. عادت.. لم يبق إلا القليل، بقيَّ أن أدنو من رائحتها ليتشكل لي جسداً على هيئتي السابقة..

ووقفتُ في عراءٍ بلا جهات (وإلى الآن لا أعرف كيف لعراءٍ أن يتشكل هكذا دون جهات) رفعت ضراعتي لأغوي الكون أن يحضر:

وكانت الريح.

أعرفكِ أنتِ سليلة الريح.. ستقولين: ماذا قالت الريح؟

(4)

لازلتِ نائمة يا هدى والحكاية تستَعِرُ داخلي، لم أعد أستطيع انتظارك حتى تنهضي من نومكِ، وتشربي قهوتكِ، وتسمعي فيروز «طل وسألني إذا نيسان دق الباب... خبيت وشّي وطار البيت فيٍّ وغاب...» و..

فأنا أخوض في لغز الحكاية، وقد تشبَعَتْ بدمي وأنا تشبعتُ برائحتها.. ولا يمكن لمن يرشح بالهذيان أن نقول له هدى نائمة، لا أحد يطلب حكايتك.. وكذلك لا أستطيع أن أفطم دمي عن رائحتها. صحيح أنها تمضي خطوة باتجاه القشعريرة، لكنها تتركني مخضّبًا بصوت عارٍ يشبه نعشاً. لستُ ذواقاً لطعم الأصوات مثلكِ لأقول ماطعمه.. أنا أسمع الضوء، قلت ُلك قبل قليل، وأنا أشم رائحة الصوت..

إذن كان صوتها وهو يغادرُ (لم أعد أعرف صدقيني يغادر ماذا.. أنا أم هي أم الحكاية) يشبه قرآنًا يُرتل على قبرٍ أو لأقُل: كان له رائحة الضحى..

أو: حين رأيته آخر مرة كان عنقود عنب. دعيني أقرب المعنى: كان فاقداً الوعي.. كان حافياً.. كان يسدُّ الهواء بقامته.. ياالله.. تخيلي، قامته قوس قزح، ويلبس أسوارَ من الذهب.. هكذا كان..!

ماذا تريدين أكثر، وقد هرّبت لك جزءاً من آخر الحكاية إلى أولها، هكذا فقط أجازف لأصحو، أجازف ليس من أجل رشوتك كي تسمعيها، بل لأن الطريق طويل إلى هنا، وجسدي محموم يريد أن يقول كل شيء بكلمة واحدة لأنه أصبح يتفتت.

أجازف لأن النهار قارب على الانطفاء مرة أخرى، والحكاية لا تنام ومواكب الصباحات مرّتني مكتظة بأناس يقيسون الليل بأظفارهم وأنا مضرج بجمر يكويني بالفقد، ولا أستطيع أن أمسك الرعدةَ وهي تلجُني كل حين..

هكذا.. هكذا أعود للحكاية، لم أنسَ: كانت الريح أول الواصلين إليّ، وأنا أتضرّع فوق الجنازة

أنا أرى الريح، لاأحد سواي رآها، كانت الريح حين حضرت لضراعتي تلبس عطراً أخضر

قلتُ لها:

أنا موجَعٌ بإسرافٍ.. ياأمنا

أنا شحوبٌ ينتحر تحت عرائش النسيان

تكدستُ مثل جبال تنهار فجأةً

أسدلتْ تاريخا وثنياً على ماقبل حضورك

اضطهدتني الدروب والعشبة والحلم والنداء والـ...

نهرتني، وحين لم أصمت صفعتني، بيدٍ كيد بحارٍ غريق. جثا دمي على ركبة واحدة وصرخ:

وسّعي هذه الأرجاء اختنقتُ

شرّدي الكفن عن ندائي (هكذا صرتُ أسميه دون أن أتأكد) أريد أن أراه ملوناً

أريد أن أحدق به..أعد أضلاعه.. ألامسه فقط.. لتنبجس الرؤى كنبع من الضراوة، أريدُ...

أمسكتْ يدي، وقادتني إليـ.. إلى فوقه.. ياأللّه كانت رائحته (ندائي) تفقأ غيبوبتي لأصحو، وعرفتُ الرائحة أيضاً، فقد تشرّبها كلّ عمري.

قالت الريح: هذي ذنوبك.. (بهتُّ..) مد يدك واقترفها!!.. كان الصراخ مدوياً من صوتها، لم يكن باستطاعتي أن أفكر، مددت يدي إلى كفنه (المطر الأبيض) بارتعاش يشبه ملوحة عطشى، أو جنونًا بلا ملامح، أو مثل نسيانٍ ممزق

حينها كان الفضاء قد فقد الأبعاد، لم يعد ثمة شيء سوى أنا وريح ونداء تحلل من كفنه ..

كيف نَصفُ التلاشي؟.. كيف نَصفُ الـ لا شيء ؟ حين أتذكر هذا الآن أصير مثل حجرٍ يهوي منذ الأبد وإلى الأبد

حين أغيب في النداء أقول:

لو كان لي جناحان يومها

لو كنتُ أستطيع تحنيط الفتنة

لو استطعتُ أن أزرع اللهفة

لو أني استطعتُ (يومها) أن أخطف الريح من سـرِّها، وأجعلهـا قـلادة تتوسطها عين زرقاء. لما كنتُ أسرد لك الحكاية الآن ياهدى.

وأنا - كما تعلمين - لستُ سوى تيه على هيئـة مـأتم.. لـستُ سـوى وحشة تتسرب لتضني الآخرين.. لستُ سوى متاهـة يـضرم الآخـرون بها النارَ كل فجرٍ، ويمضون..

جسدي مهد الجنازات..

تعبتُ من انتظارك.. سأروي لك فيما بعد كيف حـضر الغـيم.. يومهـا لم أعلم كيف للغيم أن يحطَّ على الأرض، ولا يتبدد..

أما الآن سأحنّي ما بقي من اليوم بدمعٍ استلفه من تفاصـيل لا تبـوح بأسرارها..

فقد نشفتُ

(5)

أينك ياهدى أما زلت نائمـة؟.. لكـن حكـايتي لا تريـد أن تنـام.. أريـد إخراجها من جوفي لأنها تأكلني.. وأنت مازلت نائمة، أو.. لـم يخطـر ببالك أن تعطي أذنك للحكاية؟.. فمسعد يلكز الغربة بحروفـه لينكـأ جرحها.. وأنت لا تمرين، والحكاية لاتريد أن تفارق..

حسناً سأكمل، لم يعد انتظارك يعني سـوى إطالـة أمـد الـدماء التـي تسيل.

الحكاية كما ترين ملوثة بدمٍ لم يعد مهماً أن نعرف دم من، دمي أم دمها أم دم الحكاية؟. وحين تكون الحكاية لها رائحة الـدم سـنخجل من ذكر الدمع..

ألم تقرئي ماكتبته عنها / لها / كاعتذار لا يكفي؟

ربما لم تقرئي سأعيده لك هنا:

هذا أنا أيضاً

المسافةُ تأكلني

الغيابُ الذي أصبح بعشرةِ أذرع

عيونُها التي أطفأها الدمعُ

وجهُها الذي أصبح كجبالٍ من الذنوب ترزحُ فوقَ صدري

ضحكتُها التي فتحتْ نوافذها لتطل على الجرح

والتي كانت مثل جيـادٍ يصلُ صهيلها للأقاصي

التي كانت تشتلُ اليقينَ

أيتها الحياة كم تعبثين بنا

امنحينا قليلاً من سعة الأفقِ كي نكون نحنُ

لم تكن جزءاً من الحكاية، لألبس عباءة الراوي، وأبتعد قليلاً كي أرويها... وفاطمة تقول أسعفتك اللغة، وأسعفتها.. وأنا أقول ليست لغة، كانت رائحة الدم هي التي تكتب، كنتُ أضع يدي على جسدي لأكتشف أن لا يداً ولا جسدَ، الكل غدا جرحاً ولا أعرف كيف سأخيطه!

للحروف فحيح الأفاعي

للدم شبق بالحروف حين تسيل

وللحمى طعم مكتوم

وأنا أروّض الحكاية، كي لا تدمي الآخرين

لو نستطيع أن نخرج الحكاية من داخلنا دون لغة، لما بقي أحد محصناً عن الدمع.. لما بحثنا طويلاً عن مفردةٍ تروي عطشنا لما نريد أن نقول..

اللغة متاهة لا بوابات لها إلى الجسد؛

كلما حاولت أن أضع يدي على وردة الهذيان تفرُّ، كلما أطلقت العنان للغفلة النائمة تستيقظ.. صرت بانتظار مهدهدي روحًا مجوّفة، أعضائي تمعن في سديم الغياب ولا طعم في الحروف..

لم تكن أي عابر، ياهدى.. لم تكن..! كانت: أنثى الفراسة وشهقة القرين. لذلك علي أن أهدهدها كما يليق بها؛ وستعرفين من الحكاية كل شيء.

إذ حينما لم يبق سوى أنا وريح ونداء تحلل من كفنه، صرخت أوصالي:

هاهي يا ليلاً مكتومَ الأنفاس. وقلتُ للريح احمليني وندائي (حينما تحلل عنه الكفن: كان هو) إلى أي أرضٍ بلا كائنات؛ لأزرع صوتي وينبت مفعماً بالاستغاثة.. أنهب الشهوة من البراعة الباهرة.. أريد أن أتلو ندائي على السحرة ليتعلموا السحر.. أريد نصف إغماءة لتغدو المخيلة جنّاً مخبولاً..

ونادتِ الريحُ على الغيم: أن احضرْ

تكورت كل غيوم الكون على شكل طـائرٍ لاوصـف لـه، وحـط بقربنـا. يااااه ياهدى لـم أرَ طـائراً هكـذا بـلا شـكل ولا لـون ولا جـسد.. قـال الطائر:

بجانب الجنة نهر للاغتسال..

الطريق شهوة؛

والضالون أنبياء لازمن لهم؛

المطر غبطة العطش، والنداء صوت برائحة اللعنة؛ تعلّـم أن تداريـه؛ تعلّم أن تكتنز رائحته؛ تعلّم أن انتظارك له كان مكمن اللذة؛ وتعلّـم أن الفراق نجم في سماء لا تراها الآن.

تعلم المشي فالطريق يبدأ الآن... والنداء بلا أقدام

لم أفهم شيئاً، صدقيني، حينها قلت له:

أليس ندائي بوابة للعبور؟

أليس ندائي تميمة الوقت ؟

لم يرد، وضحكتْ الريح وغابتْ. قلـتُ: احملنـا ياطـائر الغـيم. همهـم بالمغفرة، وقال: لا أرض لك وحدكَ، فكيف وقد أصبح نـداؤك يغويـك للأعالي.

قلت: أنا طعنة الحنين.

وكنـت رغـم اخـتلاط المـشاعر، ورغـم ارتجـافي، ورغـم إحـساسي أن لجسدي (الذي بدأ يتشكل) قلب يـدق.. قلـب مـن الـريح قلـب سـليل البروق.

يااااه حينها بدأت تنبت للآفاق جهات..

كيـف لكـل هـذا أن يغـادرني ياهـدى، وأسـتطيع أن أكتبـه كيـف؟ ستحزنين لذهاب كل هذا، وأنت فقط لا تعـرفين إلا الحكايـة، فكيـف لمن ولدته الحكاية! واختلطت به بعد الولادة ليـصبحا كائنـاً واحـداً؛ أن يبكي! ويكون بكاؤه مجرد دمع!

قلت: ياطير الغيم احملني، هاقد أصبح هناك جهات. قال: أي جهة تريد. قلتُ: الشمس ياسيدي.. ضحك.. ضحك..

قال: إلا الشمس. ولدتَ من رحم الليل، وتناسلتَ في الظلمة، فكيف تريد الشمس؟.

قلت: ياسيدي أفهم هذا لكني تعبتُ؛ لم أعد أبصر شيئاً، وتعرف أن بصري دليلي فكيف أسير؟!

قال: سأحملك ونداءكَ، لكن للشمس هيهات..!

قلت: خذنا إذاً لأي الجهات تريدُ.

ياألله، تخيلي أخيراً سمعت ندائي، وكنا على ظهر الطائر الغيم سويةً. وأنا أضرمت الليل بكل سمائه، وصرخت من على الطائر الغيم: يانهاراً مؤجلاً لم أعد عابر سبيل.. تعال لأرَ وجه ندائي.

حضر النهار، ورأيته، رأيته، من يرى وجهه في النهار كيف يحتمل غيابه؟

أنت لا تمرين حكايتي، وأنا أريد أن أنام لم يعد بي من الحيل ما يكفي كي أغادرها قليلاً، ولم يعد بي ما يكفي لأصمت، ولم يعد من جسدي شيءٌ إلا حكاية تأكله..

وأنت نائمة.

(6)

كنت أوشك أن أغادر الحكاية ياهدى، حين قمتِ من وردِ نومكِ... كنت أوشك أن أحرق ما رويته لك لأجفف دماءً كثيرة تسيل.. وها نحن نضيف للحكاية بعداً آخر.

سأظل أرويها لك حين تنامين.. وهكذا حين يغادرك الليلُ، تجدين تحت وسادتك قطعة من الحكاية.. لكن حاذري: لاتؤكل، خذيها وانشريها في الشمس زاداً لأيامك القادمة ..

مسعد يقول لي: أنت عاشقٌ أو تغادر عشقاً. قلتُ: إني انتعل الخطى لأؤدي الفرائض.. أتلو الفيض كنصاعة تستدير وتجفف بكاءَها.. وصديقتي التي كنهار يحترق تقول لي: لم تعد الحكاية ملكك، عليك أن تكمل لنرى فتنة الدم..

وسوزان تريد الحكاية لتبللها بالماء، وتصنع منها كتاباً يحمله العابرون إلى نومهم.. وحامد يقول: امضِ كالأنبياء.. وستتمتم دلع غاضبة: ألم أقل لك استدر.. وكف عن هذا الليل الذي تلونه بالدم..

وأنا أوهنتني الحكاية، أريد أن أخرج منها إليّ.. ولأجلك فقط ياهدى سأفتح أبوابها مرة أخرى، وألتقط خزائنها من الغيب لأمضي..

أخضرَ يزاحم أفواج الحلم
غير آبه بسلالة المنفى
أحمل الفوضى في صرة خرساء
وأدعو يد الله إلى وليمتي لتشاركني النحيب
وأسألها أن لا تجهض طفلها الذي نما كلهيب صلاة
وستغار منه الأكوان

لستُ مغرماً بالعبور إلى أولي غير أنـي أتلـوه وأعلقـه كالتميمـة علـى باب الطريق...

إذن ياهـدى.. والتـي (لـصوتها رائحـة قبـو قـديم) والتـي بكـى علـى نافذتها طائرٌ غريب ذات يوم..

حملنا طائر الغيم.. قلت ياطـائر الغـيم خـذنا إلـى الجهـات.. ودعـوتُ النهار من عليه أن تعـــال، أريدُ أن أرى وجهه (ندائي).

حين حضر النهار كانـت تغطـي وجهـه النـدوب. كـان مـستغرقاً فـي تحسس يده المبتورة. كان مخموراً. كان يدخن لفافةً تبغ لهـا رائحـة عمياء..

قلتُ: لاتقربنا.. لا تقربنا.. يانهار الفجيعة.. على وجهك بثور الجدري، ورائحتك...

كنتُ أحسبكَ مثل العراء لا يزينه شيء. كنتُ أحسبك صوتاً فرَّ من فردوس لم نره. كنت أحسبكَ..

هممهم بالضحك، وخرج الكلام من لهاته: يا أحمق كيف أكون كل هذا وأنا وريث الليل؟!

بدأت تنبت الجهات (كما أخبرتكِ) والطائر قال: إلا الشمس.. وقلت لك أن النهار كان أعمى فلم أرَ ندائي الذي أمامي...

وبينما نحن في فضاء نبتت له جهات، صادفنا سرب من طيور الغيوم.. فرحتُ.. اصطدم السرب بطائرنا فحدث برق كثير.. ولم نحس أنا وندائي إلا وأصبحنا مطراً، وبدأنا نسقط باتجاه الأرض... صرنا مطرًا ياهدى، ولا يمكن وصف شعور المطر، لا يمكن لكائن أن يخمن شعور الطيران، فما بالك إذا كان هذا الطائر مطرًا!

أنا ممسكٌ بيد ندائي وأناجيه كي لا يبتعد:

ها نحن ورثنا الحب من السماوات المبجّلة (لم تكن هناك سموات لكن ماذا أقول: من الفضاء؟)

سنكون ماءاً ينير الصباحات المكتظة بالإغواء

نحلق؛ ولسنا في الغيبوبة..

لأننا مطر لن تتبعثر أشلاؤنا حين نصل..

لأننا مطر سنروي المسرات..

بربك، بعد هذا كيف يكون شعورك لو قالوا لك: هاتي النداء فـ «الحكاية شحيحة لا تكفي اثنين»؟

حينها سيعاد تشكيل الهواء سيوفاً

ستكون الأرجاء جيوشاً، وأنت العدو الوحيد

سيتفسخ نهوضك، وتصبح الهاوية كأساً، ويصبح الصراخ يداً تتحسسك

آه أشعر أن النظرات المحشوة للزمن ترمقني بنكباتها

أن اللغة معقمة بلا رائحة

و أني مثل نسّاجة تنسج اليتم، وتفكه كل صباح..

أشعر...

حين ترين هذه القطعة من الحكاية تحت وسادتك في الصباح، افتحي النافذة، دعي الهواء يمر، ودعي فيروز تغني «بكير طّل الحب...»واشربي قهوتك..

ربما بعدها سأروي لك كيف وصلنا..

(7)

هاااا إذن هدى تسأل متى؟ ألن تكمل نواحك أيها الغريب؟ وماجد هنا.. وأنا أنقّل رسالةً له قالها ذات ليلة موحشة كوجهي«يبدو أن الحنين لعنة الغريب / وأنت كما عباد الشمس / تستدير دوماً نحو الضوء..»

إذاً.. الحكاية تتسع؛ الحكاية تتشبث بجثتي؛ والحكاية نخلة العابرين. ولا أعلم ياماجد صدقني إن كان الغريب فاجأه الوقت، أو فاجأه سؤالك ليجيب!.. بينما الزهيري يريد أن تظل الحكاية دمعاً لا تجمع أشلاءه الوجوه ..

قبل أن نمضي في الحكاية ياهدى عليّ أن أتذكر..

أذكرُ أن الشاعر قاد البرية من أطرافها لتدخل عظامه

أذكرُ أن النسيان كان بلا وجه

أذكرُ أن الماء كان يقود الجروح كي ترد المآتم

أذكرُ أن اللذة كانت عاطلة وتنتشل غفلتها من جيوب الحرس

أذكرُ أن المفؤودين كان يتناسلون دون أرحام

أذكرُ أن المخيلة تزوجت اليابسة

أذكرُ أن الأجوبة كانت تتعفن كلما التفت إليها السؤال

أذكرُ أني كنت بين أنا وإليكِ

هذا ما أذكرهُ... لكنني نسيتُ أين تركتُ الحكايةَ؟

تناقل عابرون أن لها ذرية في كل بلاد. وقال عابرون أنهم رأوها على شكل فرس تهيم في ارتجاف الفتنة. وقال عابرون أنهم شاهدوها بلا ملامح توزع ممالكَ هشة وصغيرة كالقلوب. بينما روى حفاة (وأنا دائما أصدق الحفاة) أنها كانت تسرح بقطيع من النشيج عند أطراف القلب!! والقلب أصغر الجهات ..

ونصحتني الحكمة بباب العرّافة.. إذ جريت إليها حاملاً بخوراً من شهيق البياض، قلتُ:

أيتها السادرة في شرود البصيرة

أرى أن الهواء لم يعد يسترُ الصبرَ، وحصاني أضاع صهيله، وفاضت شهقة الفراق كليلٍ أزرق. أريد أن أخّر الآلهة كي أرمم العطش.. العطش أصبح كل أطرافي؛ العطش لساني؛ صوتي؛ متني؛ العطش ساقي

أريد أن أستدرج الماء إلى مواطئ قامتي..

لن تصدقي أنها قالت: أنت تتنزه بالرحيل، وتلهو بنشيدٍ نُسيَ عند مرضعات النهار. مهدك النسيان فلا تفقأ عين الحكاية كي تبصر الدنيا. انثر الغياب في كل أرضٍ حللتَ، ولا تذق القرابين..

هكذا إذن، فكل ما أفعله الآن هو طعن مايتلوني، وإلهاؤه بدمه كي نظل مطراً(أنا وندائي) لم يطأ الأرض. أخاف ألا يكون هناك أرض. خائف صدقيني، إذ ربما ليس هناك أرض، كيف سنصل؟ سنظل مطراً يهوي بلا علامة فارقة، وسنظل أسرى تيه لا يرحم و.. قَدِمنا من علوٍّ بعيد

وسنظل عطشى، ونحن مطر، وسأحتار كيف أكمل، وأنا في كل هذا! إذ حين قلتُ:

لأننا مطر لن تتبعثر أشلاؤنا حين نصل..

لأننا مطر سنروي المسرات..

كنت أخمن الزمن، وكنتُ أخمن الوصول، وكنتُ.. كنا المطر الذي هُدر منذ بدأ الحكاية، ولم يكن يعلم أين يمضي..

هل لكِ أن تجدي لي حل ما سنكون ؟ إن كان هناك أرض، وكان الوصول إليها مطراً حافياً

هل سيعني هذا موتُ الحكاية ياهدى..

حينما تفتحين نوافذ الصبح تجدين أن الحكاية تختنق تحت وسادتك عليك بها.. اتركيها.. أوقدي لها النهار.. أو ..

(8)

الذي أتقنته الخسارات، لا يتقن النحيب.

تنهض له الخسارات في كل دربٍ يمضي بها أو تمضي بـه، يتأملها وينحني لها كغبارٍ وسـمته الهجـرات. يتقـوس علـى حلمـه ليجـد أنـه يحضن هواءاً وأنينا مكتومًا. تلدغه الخـسارات، فتنحـسر مخيلتـه عـن بهاءٍ طاعن في السن.

يلتفت لمنافذ الشمس، بأنامل كممها القلق، يهفو لملامسة الوجوه، يرشق السكينة بصرخة حادة كخنجر؛ ويمكث في مدار ضيع أزمنته.

أحلّ وثاقي كي أتقن المنفى

أمسكُ بقدمي المسافة خالعًا نعليها

وحافياً أرفع فطامي:

أيتها التقطر سراً تذوي له الأعناق؛

مالك تحرقين رجلاً أعزل وشمته المنافي لتستدل عليه.

كنتُ أقرأ العراء محشوراً في دمي، وأطرد اللهاث كـي يقـودني النـوم برهة. امتحنت كل شبر في لبِّ الأفق لأرشو القشعريرة بصمتي.

خُطـتُ كـلام اللّه ببعـضي لأصـنع رداءاً يقينـي الخـسران.. غيـر أن الهتافات سممت الضوء وهو يلد في فنائي

لست رجلاً للحلم

ثغري يقودني للمعصية

وجسدي حنطة نُسيت في «الجفور»

وراحتي مغارة الخاسرين

آه ياكلّ هذا..

مثلي مثل خلق اللّه.. أشتاق.. أتغزل بقوس قزح.. أستظل بالأشجار.. أشرب الماء حين يدهمني العطش.. أرتل أغانٍ على هيئتي، وروحي ليست بمنأى عن الريح.. غير أني دائما أُسفح كماء الجنابة مخذولاً، ووحيداً، وتتشربني أرضُ الخسارات

ما كانتِ الخسارة أمي

وما كنتُ نبياً كي تكون رسالتي

ولم أكن أعمى كي لا أبصر الفداحة وهي تقلم أظفار قلبي

شاهدت محبرة الريح تدونني، وشاهدت العابرين يملؤون جرارهم من دمي وهو يسيلُ

وشاهدت الأمهات ترفو قامتي الممزقة ليسترن دمي

صوتي يتخثر في دمي كلما هممت أن أنادي المغادرين:

يـاربّ القـسوة لـستُ رغيفـاً ليـأكلني كـلُّ مـن هـمّ بالغيـاب. لـستُ «غرغرينة» بأطراف الآخـرين كـي يعـاجلوني بـالبتر. لـستُ بومـاً فقـد الليل وهام على رؤوسهم. وليس لي معجزة كي أردم المسافات التي تتوالد بيني وبيني.

لستُ

سوى انحناء يلم التفاصيل، ويطرد الرؤيا هازجاً: نبوتي يومٌ يهبُّ من مستنقع الأموات. قُبلةٌ تستر جسدي.سلامٌ غائمٌ بالعطر يهيّج فتنتـي بالحياة.. ماطلبت الكثير لأحتفي بجثتـي، وأنهـض هازئـاً مـن خـراب الكآبة

تباغتني الخسارة دون موعد، تجفل أطرافي مني، وتأخذ صوتاً تخثـر..

كيف أقول لها باغتّني أيتها الخسارة ؟

أنا مرآة الشحوب

ظل النكبات

قِبلة لصلاة يابسة

لم أجد من يحمل حلمي غير مشهد يولدُ.. يتكررُ.. وأظل أبحث في قلبي عمن مثّل بدمي

أُثقله بالسؤال، فيحتضر المشهد، و المتفرجون، وأبقى وحيداً بلا مسرح أو جهات..

أنتحي لائذا بظلي

أطوي الظلمة في صرتي

وأمضي...

ما كنتُ غزير الأحلام

ما عشقت الدم يوماً.. حتى أني أجفل من مرأى الدم بعيداً..

لم أقف مثل أقراني وهم ينظرون إلى شاة تذبح ليبتهجوا بشخيب الدم. لم اجرؤ يوماً أن أمد سكيني إلى دابة أو عصفور. ألهذا صار دمي مورد الراحلين؟!

أنا من يسمم الهاوية

أنا من تسرح في مخيلته الفجائع

أنا من تتدلى من جبهته فتنة التضرع

وأنا من لا ربَّ له

ضيّع حكايته، ونسي أن يعد على أصابعه سيرتها. أين وصلنا؟ هل تلقفتنا الأرض؟ أين هدى؟ أيها العابرون...

أرجوكم دعوا لي قليلاً من نهاركم، فقد هرمت شمسي. قليلاً من الحلم، قليلاً من الأنحاء، ولا أريد شيئاً من الدروب. وأرضى بقليل القليل من خبزكم.

كان أبي يقف ضارعاً في المساءات:

اللهم لا تكشّف حسبي.

لم يكن ثمة ربًّا في الأعالي فأكلتني الفَاقةُ، وها كلي عارٍ في فضاء الربّ. ألا من يسترني ببعض دمع، فما عاد دمعي يكفي لأكفن الراحلين!

(٩)

في المنفى كلُّ شيءٍ جاف إلا الحنين، فهو مبللٌ دائماً.

هكذا لم يستحْ حامد، وهو يدميني مرة أخرى برفع هذا النواح من حُفر الغياب..ربما لم يعرف أن هذا النواح قدَّ من دمٍ. وربما لم يعرف أيضاً أني مُذ كتبته لم اقرأه إلا عندما رماه بوجهي.. وربما لا يعرف أني أنسرب نحو داخلي، أقلب حلماً نما هناك، حتى تحولَ أفقاً، وأنا أقرأ هذا النواح

إذن ياحامد – وقد غابت هدى ولم يذكر عنها الغائبون شيئاً- تعال نقلب القشعريرة التي ترتجف كلما اقتربتُ من صفحاتها وهي تدفع بي إلى عتمة تتحرش بالذاكرة تعال وهات سكاكينك لنذبح المشهد:

في شارعٍ يزدحم بالوحشة

في شارعٍ يترصد الغرباء

في شارعٍ دونما شفقة

رأيتهـ/ـا

أخرجتْ ثديها من تحت فستان الكلام

نادتني:

تعال

نهدايَ ممتلئانِ بحليبٍ مخبئ منذ آدم، والعرّافة قالت سيمر فتى خانته الطرقات يمشي حافياً كعراءٍ أبرص، يجاهدُ كي يَصُبَّ ماءً على يدي النهار.. إن رأيتهِ يمجد السماء، ويؤذن للطير كي تصلي فهاهو.. أرضعيه على الملأ.

اقتربتُ ببراءة اللغة، حللتُ وثاق لساني: صرختُ..

تلقفتني أيادي اللهفة، وخاطتِ الكلام إلى حنجرتي.. كي أقول لها:

ياحلماً يأتي على غفلة من النوم والصحو

يفتح نافذة التخيل على شبقٍ أخرس

عيناي تنبض بشهوة الرؤية

والعتمة نخرت عظامي

داري هذا الارتجاف فيَّ، فقد ورثته من قومٍ حفاة

مشّطي ليلي بمباغتةِ ضوءٍ يرتجف على نهديكِ

ها أنا قوس قزحٍ مضرج بالهتافات، أرتمي عند أصابعك، أعرّش هناك كاحتفالٍ لم يحضره سوى الهواء. يقيني يذوب ويغمض متاهته في جمالٍ لم تسفحه الخيبةُ

هيييه.. مالذي أخركِ حتى هزمتني الرايات؟

وكانت على غفلةٍ من الزمن تُرضعني ضحك المنافي

وكانت تراود روحي نحو الماء

وكانت تضرّج الحنين بحضورٍ مُحنّى الكفين

وكانت تصفق لقامة من عسلٍ وبخورٍ أن ادخلي...

وكانت تهتف للقصيدة أن لاطفي هذا العابر العاري من أشلائه.. غني له كي يلمَّها من جهاتٍ بلا يقين

استدلَ الكلام إلي فقلتُ من! أنثى الفراسة..

يا البلاد التي أبحرت تطلب مغفرةً من البحر

يا الغرنوق الذي استدل على رائحة النهر

يااللواتي تحضرُ مرصعةً بممالكٍ عامرة

ياموهبةَ الحبِ والنهار خذيني لأعرف أن العالم أبصرَ الفتنةَ وثملَ / دعيني أعلّم النار كيف تروي الذهول / أجثو على عتباتك أمشط الحلم...

وهكذا ياحامد هكذا باغتتني السنين فجأة كلها.. وما عدتُ أدري كيف أشرب كل هذه الشهقات المبللة بحليبها.

(10)

كانت النافذة تقول للمساء:

خلفي غريب يأكل وحشة البيت «تحول أيها المساء إلى سنونو واحمل له جوهرة الفرح كي يرى الدنيا».

لم أدر هل أصبح رملاً أم أتوكأ على الغبار؟

أحمل فصلاً خارجاً من الليل. أدفن خطى كالحة. أطوي الصبر تحت وسادتي، والتحف نداءاً، كي أنام

الأقدام الخائفة أضاعت الطريق

و قامتي تغسل وجهها من ندوب مذعورة.. لا أسرار لدي أيها الغرباء مثلي.. كل مالدي أنني أهوي إلى أعماق أهندسها على هواي..

لم أسأل أحداً منكم لمَ هذا الانتظار طويل؟ لمَ قلبي مستوحش كأن مفازةً تسكنه..

لست على عجلٍ من أمري، لا تردوا.. ولايهم كذلك أن ينساب دمي جحيماً أو جنة أو أرسم على وجه العالم خطوطاً من الرؤيا المغمضة العين .

لا أريد لكم، أن تتصاعد حمى الغربة وتتلف الأبواب. تعالوا نرسم تفاصيلَ صغيرة، ونسأل الريح عمَّ تعنيه بنقل أغنية حزينة إلى بلاد الثلج لتدمي الغريبة..

تعالوا نسأل المآتم لم لا تخبئ نظراتها، وتترجل عن أروحنا؟! فما كل روح تشتهي النواح، ولا كل روح تلهو بنار الدفء حين تجف المسافة أو تستطيل.

هذا شجرٌ لكل عابرٍ: والنواح شجر الغريب.

أيها المثقلون بخطايا أعياد تمر دون ناس. تمرّ دون أن يصطدم أحدنا بطفل صغير؛ دون أن يقول لنا أحد:

مابال الحصى يثغو

مابال أرجلكم أضاعت الطريق

هاهي الريح حاسرة الشعر. تمرُّ، وتلكز خاصرتي كي تذكرني بأغنية نسيتها هناك..

قال الحطّاب: منجلي لا يحصد المسافة. وقال السائلُ: لا قدح لدي كي أرويك من عطش الأيام. وأنا في آخر الليل ارتدي قميصاً يختلج كأنه قلبي هل يصبح القلب ثوباً؟ وما يدرينا أن قلب الغريب ليس رغيفاً تأكله الأيام!

شاخصاً إلى ربٍّ لا يسمع المنادي، بعيون مطفأة وأكفٍ دنت من قبرها، وبخطى موهنة اسأله ياربَّ الريح: كسرة من الضوء فقلبي انطفأ، ونهارك لم يعد يزورني.

هذا حليبنا أيها الغرباء، وهذه شفاهنا تدنو من الماء فيصبح عطشاً مالحاً، وهذه الدنيا تضيق. ولم نعد ندري إن كانت ستتسع لأدمعنا فقط؟

أيُّها الغرباء كضوء فقد نهاره، كليلٍ لم يعد به من الظلمة شيء، كعالمٍ خالٍ من الألوان، كفراغٍ يحصدنا بمناجل المشيئة.. أعينوا الغريب كي يدفن أيامه، فقد فاضت رائحة جثة حكايته.

تأخر الشتاء قلتُ لحبيبتي.. ولم تنتبه أن شكلي كان غباراً، وقلتُ أيضاً أريد حضنك أيتها الصوت البعيد، ولم يكن لشهقتي تاريخ، ولم أكن أفتح المرايا على شكلٍ بشري له ملامح الصليل..

عندما ألهو بالبعد كطفلٍ ضيعه أهله وحمله عابرون أقول:

من يجفف هذه المسافة؟ من يجرح أغنية عابرة كي أرى دمها، ومن يطفئ الجنون؟

هل رأى أحدٌ منكم مساءً يصغي ليتيم

هل رأى أحدكم هواءاً يسكن دمعة

قلت لكم أن الهواء جدُّ الشهقات. والشهقة تصغي دوماً للحكاية. وإن المسافة مأخوذة بمسافحة الغرباء

قلتُ لحبيبتي: المسافة تتسع، وأريد كتفك

وقلتُ في رسالة لم تصلها: أريد فصلا خامساً هناك من سرق الفصول مني!

أيُّ بوابة سأعبر، وأي طريقٍ سأختار، وأي ذاكرة ستأكل مني؟

كنتُ أحمل رسائلي، وكنتُ أهذي في ليلٍ لا ينام

كلما شردت السماء، تتخثر المجابهة مع النوم

كلما سادت الجثث، وهنت الأرض

كلما فقدتُ الذاكرة، ولدتُ من غيم لا يمطر

كلما..

انظروا لهذا الغريب الذي قالت عنه النافذة: يالحماقتـه إنـه لا يعـرف الغناء.

بكيتُ فأنا أحب.. وتنحرني المسافة..

(11)

لن أغادر التفاصيل. وإن ماتت الحكاية ونقرت جثتها الطيرُ. وإن هَرِمَ العابرون.

سأدوّن الخراب على بابي كاِسمي:

يداك طفولة النجوم وأنا شاطئ بلا معنى أتقن الأشباح، وأهدهد الكلام المنصوب مثل فخاخ، وأهترئ في أذن من يسمعني، أباري العذارى في سباق الفقدِ كي أرث الظن.

أتذكر أن النبي همس بأذني يوم ولدت: ستكون جرحاً لمن يمر بك وستكون تلويحة لا تسكن.

على مدخل أنفاسك أقف، وينهرني صمتك، وتقولين: طالما تقف هنا فلا حاجة بي للهواء.

أعقد صداقة مع الماء كي تتسرب أرجائي إلى غزال يخاتله الصيادون. اقنع الساحر بمهارتي في تحويل الجنون إلى مخلوقاتٍ تنز من خاصرتها الدماء. أقنع المنجمين أني كنز تتبرأ منه أطرافه. سأقول لكم خفايا هذا العام:

1- سينام العاشق بلا خبزٍ، ويحتسي أخلاط المجازافات.

2- سيصاب رجل في آخر العالم برمدٍ في عينيه اليسرى.

3- في مدينة على ساحل البحر ستتعرى امرأة، ولا ينظر لها أحد لأنها عمياء

4- سيموت رجل بفضيحة توشك أن تلون الليل.

5- ستفقد صوتها، ولن تستطيع حينها أن تنادي: حبيبي.

6- صياد ماهر سيصطاد الوقت، ويطبخه بريشه، فيمضي الناس دون تواريخ، ولا يستدل العشاق إلى مواعيدهم، وهكذا سيذبل الحب.

7 - ستخرج امرأة للعالم، وتقول أنا الجنة، وكي تدلل على صدقها تلبس صورة «شكيرا»

8- سيضيع مفتاح باب المغفرة، وهكذا سينام الناس مثقلين بالضغائن فيهجرهم النوم.

9- ستغلق الحانات، وسيحتسي السكارى حسرتهم في شوارعَ فرعية، وللمفارقة يثملون.!

10- سيستعيد الخراب سيرته، ويتلوها كحكواتي في مقهى يجتمع فيه العالم.

11- غادرتني الشياطين، ولم أعد أتلقف شيئاً...

(12)

صدّقتُ جنية عابرة قالت: نم. اصنعْ من النوم ثوباً لقصيدة سوف تأتي كالحبيبة التي تنتظرك.. وفي النوم عبرت بوابات العالم، وشاهدتُ أيامي مباحةً لرؤوسٍ تنحدر نحو ثمرة محرمة، وتأكل من هواجسها.

قلتُ: الأيام لا تعني موتاً ينبعث من سديم مجاور، ومضيت كرائحة خفيفة لم يشمها أحد ..

يا أصدقاء الفتنة تعالوا نؤوي الطرائد؛ نتخابث أمام الحزن ونصدر رائحة مرنة كي نربكه. نرفع أسوار المجازافات عالياً ونتيقن من الرؤيا. نروي اللهفة لظلٍ لم نره. نسرد قصصاً غابرة تورث إغماءة لأطراف النوم وهي تتحسس أصابعه. نخلص أنفسنا من براثن الأسئلة. نغرر بالضحك حتى يحسبنا ثوباً له..

كانت محاطة بسديم يورق كشجرة أمل

كانت تقود دمي مشعاً

كانت تزن رائحتها

كانت تزين مشارف الأفق بالرنين

كانت تساوم دمعتي ألا تنزل

كانت تخطو لتنزع رداء المدن، وتختلس النظر لنشيجي.. وكنت أرقب صوتها وهو يصلي، وكنت أخشع في بكائي، وأُصدر هممهات تناجي سماءها بلغة معطوبة الصوت.

يا لهذا البياض الفاجر قلتُ. ولم تنهني صلاتي ولا دمعي من أن أشهق وأنا أرى اللّه فاغراً فمه، يريد أن يصمتني بمشيئة الموت..

سأتحايل على اللّه وأسدل التبتّل على ما راودني من ظنون، إذ أني لوهلة قلتُ لا شك أن جسدها مرآة للضوء وقلتُ في سري: المغفرة تنام هناك وتنهب اللذة..

راودني الاغتسال في ريحٍ تنبعثُ من صوتها وتنشف غبطتها.. ياقرينة المصادفات، المصابة بداء سمّاه الأوائل عطش الخمر للناس، تعالي:

أيتها الحنجرة شقراء الصوت، والتي تجفل منها ساعة الذبح، وتغير جلدها

أيتها المغسولة بالأفق.. الـ تباغت الطائش بمطرٍ فادح البياض

أيتها الـ تقود الكائنات إلى ظلها الباطش

أيتها الـ تنهمر من أعالي البروق وتظل ممسكة بأهدابها

أيتها...

قولي: أنا نهر تستقي منه السماء ماءها، أنا تفاصيل مُخبّأةٌ في صرة الزمن، أنا فتنة تنام في أزرقَ لا يسعه الهواء، أنا...

لنهدي يُسفح الدم وتنفجر حروب الليل، لأردافي رائحة اللوز وملمس الشهيق، لجسدي ليل يتعطر بالشهوة ويهتف للأقاصي. تعرّي وتعالي.. إلى لعنة السبي. تعالي.. توحّلي ببياض يرتجف كأنه يستنشق العطش من رائحة الماء. قولي:

لا تقرع الأجراس يا وريث البراري لا تقرع الأجراس، فأنا خائفة من وداع الصوت

خائفة / أرتجف من كل وداع، لكن رائحتي لن تغادر دمي حينها وسأرمي الراحلين بلعنة الدهشة، وأنام في نزهة بياضي..

ها أنت تسمع البارحة، وتفيض بحزنٍ شاردٍ من صبره

ها أنت تنهل من غيبوبتك أحصنة لتغازل المسافات وتمضي دون بهجة الحب.

ها أنت تحصي الموتى، ولا تفكر كم أبيضي زعفران، وكم هو حضن، وأنت تبكي، وتسمع البارحة.

اِغمد النص الذي يؤرقك واستمع لـ «هذا الحلو كاتلني ياعمة.. ياعمة» فلرؤيا جسدي يتوقف المتقاتلون على بلاد الله وينسون جنته. فأنا ريح تتسع وتُفتح لها كل الأبواب المغلقة أو تشفُّ لتراني.

لمَ تحمل هذه الذاكرة التي تكفنك بالنواح كلما قرصك ثلج لـم تـره منذ سنين وكلما صادفك الورد تستحم بـدمعك وتـشهق برسـائل لا تصل.. لا تصل.

لا ذنـب لـي فقـد توغلـت فـي دمـعٍ ينهمـر فجـأة كلمـا شـجني ضـوء الفوانيس وهي تنادي الحرائق - ملتاعة - لتخرج من جسدي.

لا ذنب لـي؛ وقفـت أمـام راهـب الوقـت، وقلـت لـه يـا سـيدي مرآتـي انكسرت وأريد أن أبصر صورتي في النهار / أريد أن أنظر فـي المـرآة إلى الشبق الذي ينزُّ من جسدي كلما استدعاني الحزن إلى مملكته

و «الــبارحة» يا سيدي (هاجت أشواق العمر كلها البارحة) وكان ليلي جريح.. وضمدته بالنوم

قـال: الكواكـب مـضيئة.. لكنهـا مـضنية.. ابتعـد عـن الـشمس.. ولا تتساقط في درب امرأة لا تمشي على الأرض.

وقال: ليس للبرق حوافر كما قال اللّه

وقال: لمَ تسكن في برزخ الاِحتمال ولمَ تمضي في جاذبية الضوء؟

وقال: الحكمة مربط الأقاصي وما لجرحك من داء سوى سم المتاهـة وهي توزعه هنااااك..

أريد يدكِ؛

تـضمدني مـن معـارك الوحـدة. رائحتـك تطـوف بـي وأنثـال مباغتـاً قواميس العشاق بمفردة جديدة. أريـد أن افـتح عينـي وأراك تهمـين بقبلة غافية لجبيني.

أريد أن أبالغ في النسيان كـي لا تتفـتح جروحـي وهـي تـركض خلـف غيابك ويضيعها الأثر مراتٍ عديدة وتعيد الحكاية من أولها.

خذي الأرض كلها وهاتي أثراً لـضحكتكِ، تركَتـه حينمـا هبطـت علـى الأرض مصادفة.

خذي ما تيسر مـن ظلالـي التـي كنـت أخزنهـا فـي قبـو كنيـسة بُنـي فوقها مسجدٌ؛ ولم يطلق أحدٌ فيه نـداءً، ولا يمرّه مصلون ..

أتوارى في الاهتلاك

أنقذ العري من أسمال الخرافة

أشعل شمعة التمني

وأمضي صباحي مع الـبارحـة

(13)

أيتها اللون الذي يبدو بعيداً مثـل جبـلٍ حاسـر الـرأس.. الـبلاد تبـدو صغيرة والطيـور سـرعان مـا تتبـدد، وأنـا أتـصاعد كفقاعـاتٍ نـسجها السراب..

الحياة تنساب إلى أزرقها

الحياة المصقولة كرملٍ نائم في الهوينى

الحياة التي بريشٍ يزين جسدًا لم تصنه الرغبات..

كان العالم صغيراً بين يديك لكني كبرت دون أن تمرني الحياة.. وها أنا حين أمد سجادة النشوة لأصلي.. أضيع القبلة.

أرى حصوناً تشيد أمامي، ولم أكن يوما فاتحاً، ولم أعـرف يومـاً كيـف يحملون السيوف / لم أعرف كيف كانت الـسماء بزرقتهـا تتوافـد إلـي كي تقول:

انتظر

هذا ليس فناءاً أخيرًا..

وأنت تتطفل على الخلسة كي ترى الحيـاة.. أمـا آن لـك أن تـدرك أن الحياة لا تفتح أبوابها إلا لمن تشاء، وأنك ستظل تمضي فـي دربٍ لا ثغـرات فيـه، كـي تنفـذ إلـى المكـان. المكـان ينـأى، والطيـور تعلـو، وأقدامك تتورم، وأنت تمشي و«تلحقك الفصول»

اِعلمْ: الضوء قابل للابتكار لكن لا تنسَ أن تفتح عينيك لترَى أعَلمُ. لكن الأعمى!...

برصانة المهاجرين تكتب تاريخاً لن يلتفت له الدارسون. ولن يدخل في مناهج أي بلاد. برصانة الموت تمضي في أزرق الحياة و... بخفة المراهنة تضيع الحياة

تقول:

هذا النداء

ضيّع كل الأصوات

اختزل الجهات

خلط السماء بزرقتها

وخلط الأرض بأبيضٍ بعيد

وأنت تتحصن بروحٍ شديدة، وتجفل من ليلٍ عملاق كأنه برابرة يأكلون الأرض.

النهار ربيع التكهنات

وأنت لا تجد سوى دمعك لتصنع منه بحراً لسفنٍ معطوبة

قل لي: كيف تستدل على الجزر وأنت ولا تعرف اليابسة؟!

كيف تشتري المشاعر المكتظة بسحر نهود فاضت بحليب لم يشربه أحد ؟!

كيف تهرب من الوشم الذي يلاحقك وأنت لا تمشي؟!

تمتدح الحكايا لتغرق فيها. تنشّف قلبك بأغنية يدسها تحت وسادتك الليل، وتحتفي بجسدك بنظرة تخطف الغابات و.. تحلم بالشام

والشام بلاد

الشام ياسمين غادر الرائحة

والشام لم تعد تسمع غير صوت الغياب

والشام قلب يتهاوى على مفارق الأصقاع

والشام مقابر لم تجد أرضاً فبنت موتها في الحنين

وأنت تصنع من الليل شاهدة لها وتقول مازال هناك سماء زرقاء تعلو.. وعليك أن تتعلم الطيران لأن أقدامك بُترت في هجرتك الأخيرة.

قلتُ: عليّ أن أحل المسألة.

سأسمي السيدة البيضاء شام.. وأسمي الزرقة التي تحاول خطفها يد الشام

و قلتُ..

لكنك تنسى، أنها أيضا كالشام لم يبق مكاناً لها إلا في القلب.

يافطامي: ماذا صنعت بأسمالك، وكيف تعلم الشفاه أن تستدل إلى ضوء حلمتها لـتشرب دمعك مرة واحدة.

هل قلتَ: الحليب صار دمعًا.. هل تعني حليبها؟

لكني أقصد أن أصاهر الضحى لا غير. أعني أن الغريب يستنشق هواءً مهجوراً. أعني أني أحشد نفسي في أول الخيبة وأحوم مثل طيرٍ فقّد جانحيه و... أهدر طاقتي في البصر.

وقلت السيول تأخذني، وقلت الزوابع تأتي وتحملني، وقلتُ استحم بسهرٍ يدمي الليل كي يظل جسدي نظيفاً ومغسولاً بصورتها، وقلت أورّد حين يميل الفراغ عني، واختلس قبلة من صوتها، وقلت:

اِلبسي هذا الغريب صوتك كي يستدل إليه الأمل ويغفو. أنهكتنا الرايات، وتعبنا من ثوب الحداد.

تعالي نتبادل الأخطاء ونمضي في نزهة تحلم. تعالي نحشد أعناقنا في قبلة لا تضمر ولا يستدل إليها الفضوليون. تعالي نعمي أبصار المارة كي ينزلق ثدي الضحى في أفواهنا: نشرب الحليب متبّلاً بالياسمين ونذهب لـ جنة لم تزل تزهق أصواتنا

أبكي إذ أتخيل صوتك صامتاً

أبكي إذ أنسج حروفك صوتاً

أبكي إذ أطلب يديك فلا تأتيان

أبكي إذ عليَّ دائما أن أنظر إلى السماء لأرى وجهك

أبكي إذ أركّب من حروفك جسداً لك

و...

أبكي وتبكيني الفصول.

قلت لكِ: تعالي نلعب «الغميضة»: أختفي وتبحثين عني وتتعثرين بالناس. تختفين وأبحث عنك.. فلا أجدك إلا في زاوية القلب متكورة كطفل مذنب.

يضمر الحب إذ لا أستطيع أن أرسم صورتك. إذ لا تظلين غيمة في السماء. إذ أرى وجهك ولا أستطيع أن أمد يدي لأقطف منه خاتمة هلاكي. ويضمر الحب إذ يصبح أن تحتويني بذراعيك حلما!

هذا وجهك يلقنني دروباً بلا أسماء

وهذا جسدك يختتم فاتحة تتلى على الموتى

وهذا أنا: غريب يناديك:

تعالي

(14)

هل علي أن أعيد لك الحكاية من أولها يادلع؟ حسناً هاتي صباحاً طويلاً وهاتي قهوةً بكراً ولا تنسي الدمع..

ناديتُ: هذه الدنيا تتحول إلى شجرٍ عابسٍ

هذه الأرض التي واسعة تضيق حين أنادي..

أنادم الطرق. الشجر الذي رميت عليه الأخضر. أقول لفواصل تبكي ونقاطٍ تشيخ باكراً: هذه الحياة تترمل حين يغادرها أبيضك.. دعيني أوضح لك المسألة: حلمتُ أن البلاد تنهض من نومها وتأتي إليّ حافية.. وحلمتُ أن ندائي لا يشيخ.. وحلمتُ أن للأبيض رائحة تستر عظمي حين يتعرى صوت الفجر على رائحة الشمس.. وقلت لكِ في الحلم: إن الصبي الذي ترك عمره حافياً يسترد من الحياة تفاصيلها.. وقلت لك: كلما تداعت الجدران اسنديني..

فكتفك يسند الدنيا وأنا قليلٌ، كصوت يموت وحيداً وتأكله الصحراء. وقلت لك تعالي علميني كما تعلمين العصافير كيف تطير.. وقلت لك بدون رائحتها يختنق الكون.

سأشرح لك الأمر كما حلمتُ: كنت ألم الخُطى وألقنها الدروب وكنت أزرع الدمع في أي أرض أحلُّ لينبت جسدي من جديد

وقلت في الشام أشمُّ رائحة الياسمين؛ وبالياسمين أرفو شقوق عمري؛ أخيط الجروح.. وكانت بيضاء كلونٍ يتشكل من اللّه وكانت الزرقةُ تسند هذا البياض.

وكنت أنادي فيتراجع الضوء وتدنو ضفاف ميتة، وعمري يركض أمام الجحيم.. ولشدة سواد هذا العمر أسميته بومة خرساء تعد نجوماً ميتة.

قلت لك ذات سوادٍ يتعفن في جيبي:

جرحها عذوبة النوم.

الدم حين ينزُّ من تحت جلد العمر يصنع دروباً سأسير فيها وحيداً يترجى أن يصبح للأرض أطرافاً ليصل

قلت لك: الماء يرتجف حين تجري هي في دمي.

وقلت لك: تعالي ألمُّ لك دمي لنسند الحلم سويةً لم تصدقيني. وقلتِ: واحسرتاه على هذا الصبي الذي يغرق في الريح، ويا قلبي عليه وهو يتقدم في المياه التي لا تروي، ربِّ انقذه من شمسٍ تتلألأ في فضاء رحب بلا نهاية، ويادمعي استره وهو يرتجف من الليل.. ولم تصدقيني، وبكيت يومها.

وكان الشروق يحتسي صوتك وهو ينادي: سيموت هذا الصبيُّ وهو متعلق ببياضٍ مذّهبٌ بالفجيعة..

أنظر ياربُّ له، أنه يمشي كي يلاقي الليل

صرختُ: أنه الحلم.. عليَّ أن أعاند اللّه وأمضي به.. أشتله في الشام فتصبح الشام بيضاء مثلها..

ألم أقل سأدون الخراب على بابي كاِسمي، وليمضِ حنّا إلى آخر الجرح كي يعرف تفاصيله.

وقلت..

سأظل أجمع لك الخيبات كلما تنامت، وأفرشها قدام بيتك، وأبيعها لك بكمشة من ضحكتك

سأظل أسرد لك الموت كلما داهمتني فصوله بغتة.. ولتبكي.. ليتحول دمعك غيماتٍ تظلل الغريب، وهو ينوح.

لن أمحو الحلم، وسأظل أكسوه كلما جفّ بأخضرَ استلفه من قامتك، وكلما كثر الحراس على باب الهواء كي لا يخرج إلي سأتحايل عليهم، وأتحول هواءاً كي اختلط بالهواء، فلا يعرفني غيره.

تعالي حدقي في داخلي لتري عذراوت ينسجن عذوبتها رداءاً لأيامي.

تعالي وانظري إلى قلبي، وهو يتعطر ببهجة تأتي من الشام محفوفة بأثارٍ تركتها في دروب مشت عليها.

بصرخاتِ كبيرة أصدُّ صوتك، وهو يعذبني.

من خشبٍ ألمّهُ من الطرقات؛ أصنع زنزانة وأحبس نداءك: قم من الحلم.

أعرف كيف أغسل الحلم.

أعرف كيف أدنو من سكون المرآة وألقنها صورتها

أعرف كيف أعلم الأبجدية أن تتعلم اسمها

أعرف أن بين النهار وبيني كلمة

وأعرف كيف أغوي اللّه وأملأ حقائبه بهدايا أشتريها من الصمت

وأعرف..

سأظل أمشي

سأتدحرج حين تتعب الخطى

سأعض بأسناني على صرخة لا تريد أن تنثر جسدي للشام

وسأصعد فوق جثتي كي أرى ضوءها البعيد وأصلي له، أسجد فوق الريح كي توصل له قبلتي.

قلت لكِ :

أموت

حين ينحسر صوتها

أموت حين يتمزق الهواء ولا أبصر خلفه ظلها

سأشاغل الموت بأغنية دسها الحزن في فراشي كي أنام. أعطي للنار كل أسئلتي الموحشة، وأحـرق المـسافة بـدمعي حتـى تـرقّ أو تغـدو رماداً، أجمعه كي يصير نقطة بيضاء.

وأغرغر حين يداهمني الموت: بصورتها

(15)

أقطع الكون حاملاً خزائن البكاء وأسفحه.. كـأني أتكـئ علـى جثتـي، وكأني أنام في التيه، وكأني أحلب الهواء لأسِد عطشي. الدنيا ليست حلوى والثرثرة صلاة المحب. اِعترافه أن المجهول يستأنس بمداعبة الماء، وأن الحضور يركله السراب مثل كرة بلا مرمى..

الحراس يمجدون العبث

الدنيا تأكل فاتحة الغريق

المجد يستأنس برائحة هجرها المحظوظون

والرُّسل ينزفون حقائق مفروسة الأكباد

وأنا غناء تثلّمه النسوة..

قلت لكِ لو كان صوتك حائطاً لاتكأت عليه.. لـو كانـت خطـاك تنقـذ الحُمَّى لصنعت منهـا قبعـات، وحـين تبلـى مـن فـرط الـزمن المتبَـل بالحنين يصنعون منها كمّادات لرجال غرباء ينامون تحت الجسور.

حلمتُ مرة أني أدوس القدر بنعلي

حلمتُ أن الأقدار تحفظ صورتي

حلمتُ..

أكلت اللّه بيدي، وغمسته بنور باهتٍ مخمناً أنه مرَقٌ كنا نطبخ به البرغل بعد نضوج الذبائح. قلت أن الدم مسمار وأن الريح حائط وأن صلاتي في حضنها تنجيني من اللهب.

اللّه فاض وأغرقني ولم أمت.. ضاعت أنفاسي وأنا حيٌّ دونما نفس فلكِ أن تتخيلي عذابي! لك أن تتخيلي كيف أحتمل جثتي.

..رويت حكاية لم تمت ولم يأكلها الطيرُ. حكاية ما زالت تأكلني.

عندما تكون بقربي تصنع لي من الهواء خبزاً، ولا أبالي بنشرة الأخبار ولا أنتبه أن هناك جندي خطف أو حكومات خطفت أو بشر ماتوا.. ماذا يعني؟

- يعني أنك تعرف أن الهواء ليس طويلاً، وأنك تعرف أنه مربوع القامة، وأنك تغتنم الهواء قبل الذبح فلا تحفل بشيء، ولا تبصر سوى رغيفها الذي لشدة جوعك لا تأكله.

لو أتيتِم يوماً لرأيتم أني صنعت للرغيف إطاراً وعلقته على جدار غرفتي..

ماذا يعني أيضاً؟

- يعني أن الحكاية لا أبناء لها، ويعني أني لا أخوة لي، وأنا ابنها الوحيد الذي لم تنجبني من رحمها.

قلت لصديقتي سأترك الباب مفتوحاً وأنام حينما تدخلين اِصنعي قهوة لشخصين، وقلت لها: ليس لدي بن، هاتي معك ما يكفي لاثنين. وحين أتت في السادسة من صباح اللّه أيقظتني برائحة القهوة، وجرس يصدره الموبايل، استيقظت، وأنا أحلم أن التي جاءت ليست هي... ونحن نشرب القهوة شكوت لها حبيبتي. مما قلته لها:

البلاد بعيدة والشوارع لم تعد تعرف لغتي

الأصوات تجرني نحو فراغ يجرح حنجرتي

وصوتي لا يصل

البلاد بعيدة ولم يخلق اللّه -نكاية بالحنين- لي أجنحة

ذهبت لتنام، وذهبت أفكر بحبيبة كأنها منديل وداع

كل يوم نغسل الصباح من نومه، وكل يوم أمشي في نومي فلا أصل إلى من أحب، لأن البلاد بعيدة بعيدة...

لو أستطيع

عجنت النهار بدمعتها التي سالت قبل قليل

صنعت من اسوارتها التي نسيتها عندي فصلاً خامساً، وعمرت بيتاً هناك..

كيف لي أن أحول صوتها إلى ماء

وكيف لي أن أحول حضورها نهراً

وكيف لي أن أحول يتمي لرائحة ياسمين أهديه لها

قلت لها حين التقينا في آخر العمر: سأكبر بعد قليل ولن أبكي مرة أخرى لأن بكائي يعني أني لم أبلغ الحلم.. قلت لها وهي تمضي: خذيني معك، وتعلقت بطرف نظرتها باكياً: خذيني.

فيما بعد لامتني، وقالت لن أحبني إذ تبكي هكذا، وكففت عن البكاء دهراً لكنها تذهب ودمعي يتبعها ماذا أفعل؟..

قلت لها مرة: لو نصنع من رائحتك شوارع وبيوت وحدائق حينها ستهدأ نفسي، ويعود لي نَفَسي، أما غير ذلك سيظل دمعي يتبعك كلما ذهبتِ .. كلما ذهبتِ..

البلاد بعيدة وهي في أقصى المسافات، وأنا تأخرتُ.. لو جئتُ أبكر قليلاً، حين كان الناس يتألمون للفقد، وحين كان الناس يتذكرون الراحلين، لو جئتُ أبكر قليلاً لبكيتُ كثيراً لكثرة ما فارقتُ من وجوهٍ وبلاد.

كان من الممكن أن لاتمضي أيامي وأنا أكلم نفسي. كان يمكـن أن يصفني شاعر من ذاك العصر وهو يرى يومي هكذا:

الأعزل الذي أدمن المرآة مخاطبا نفسه.

يضحك ويتألم.. يرجو حبيبته أن لا تفارقه.. يقـول للأصـدقاء: أيـنكم لم أركم منذ زمن

لو جئتُ أبكر قليلاً لأهديت أحد نصوصي إلى يونس الـذي رحـل إلـى كندا؛ وأضفت له جملة من نوع «إلى يونس كيف تمضي هكذا حـاداً كنصلٍ في الغياب»

كان من الممكن أنسج الـضحى حلماً غامـضاً لحبيبـة بعيـدة وعـزلاء مثلي.

كان من الممكـن أن أتلهـف لكـل داخـلٍ إلـى مملكتـي، وكـل أخـضر يضيء فجأة، وأذبح له الخروف الوحيد...

مرة قلتُ:

الفراشات تحترق عند منابع الضوء.. اِمضِ في ظلام خافت، ولا تتـرك أثرا يدل عليك. كأن يكون لك أماً أو بيتاً أو وطناً أو حتى صديقاً

جئتُ متأخراً. وهكذا كان على حبيبتي أن تتحمل أن تكون كل هذا، لا حيلة لي، لم آتِ أبكر قليلاً، وما عندي من التذكارات أعطيته للسابقين، ووعدت من يأتي بنجمة في السماء فرّت من دمي ووعدت من يأتي بهواءٍ أصنعه من أنفاس السماء البعيدة.

لم آتِ أبكر

عليها أن تحبني بهذه العلامة الفارقة كعيبٍ خلقي لا يمكن مداراته.

(16)

فراغ يأكل بعضه

أيام تتعرى في شتاء قارس

أودع وجهها كمحارب قديم يودع سلاحا رافقه في هزائمه

لم نتبادل القبل كعشاق

بدونا كـ غرباء التقوا صدفة في بلد غريب

لم نذرف دمعاً

لم نحتضن بعض متمتمين: سنلتقي بعد قليل

حلب صيف 2006

شكر

لابد لي من شكر الأصدقاء الذي شاركوني النواح عبر تاريخه الممتد بين عامي 2003 إلى صيف عام 2006 وهم:

جاكلين سلام - حامد بن عقيل - حنا حزبون - دلع المفتي- سوزان خواتمي - سمية السوسي - سمر الأشقر - عصام الزهيري - فتحي أبو النصر - فاطمة الشيدي - كريم سامي سعد - ماجد المذحجي - مسعد الحارثي - نادي حافظ - ناهدة دوغان مولوي - هدى الجهوري - يونس عطاري

وكذلك شكري لسعد الياسري الذي راجع مسودة هذه الكتاب.

صدر للشاعر:

نون الرعاة: شعر – 2004

التنزيل: شعر – 2007

كحل الرغبة: شعر – 2008

Khalaf88@hotmail.com

إذا رغبت بالحصول على نسخة ورقية

من هنا

http://www.lulu.com/content/5026660

نواح الغريب: حكاية لم ينقرها الطير خلف علي الخلف

وقلت في الشام أشمُ رائحة الياسمين: وبالياسمين أرفو شقوق
عمري: أخيط الجرو ح.. وكانت بيضاء كلونٍ يتشكل من الله وكانت
الزرقة تسند هذا البياض.

وكنت أنادي فيتراجع الضوء وتدنو ضفاف ميتة. وعمري يركض
أمام الجحيم.. ولشدة سواد هذا العمر أسميته بومة خرساء تعد
نجوماً ميتة.

قلت لك ذات سوادٍ يتعفن في جيبي:
جرحها عذوبةِ النوم.
الدم حين ينزُ من تحت جلد العمر يصنع دروباً سأسير فيها وحيداً
يترجى أن يصبح للأرض أطرافاً ليصل .

قلت لك: الماء يرتجف حين تجري هي في دمي.
وقلت لك: تعالي ألمُ لك دمي لنسند الحلم سويةً لم تصدقيني.
وقلت: واحسرتاه على هذا الصبي الذي يغرق في الر يح. ويا قلبي
عليه وهو يتقدم في المياه التي لا تروي. ربّ انقذه من شمس
تتلألأ في فضاء رحب بلا نهاية. ويادمعي استره وهو يرتجف من
الليل.. ولم تصدقيني. وبكيت يومها.

وكان الشروق يحتسي صوتك وهو ينادي: سيموت هذا الصبيُ
وهو متعلق ببياض مذهبَ بالفجيعة ..
أنظر ياربُ له. أنه يمشي كي يلاقي الليل .

STRANGE ' S HOWLING

A TALE NEVER BEEN KNOCKED BY A BIRD

BY KHALAF ALI ALKHALAF